المحاضرة السابعة

المنهج النفسي في النقد العربي: التلقي والتطبيق

مقدمة:

يُعد أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينَورِي أول من تلمس البواعث النفسية في الشعر في كتابه (الشعر والشعراء) ، فنراه يطرح العوامل التي تختفي وراء العمل الأدبي و المنحصرة في إطار الباعث الشعوري، كالغضب و الطرب و الشوق و الحالات النفسية الأخرى ليس أكثر. وهذا استنادا لقوله : "وإنما يقول الشعرَ من غلب عليه الطرب أو الغضب أو الشوق أو الفرح أو الحزن". وهذا يعني بوضوح ارتباط الابداع الشعري مباشرة بالحالات النفسية والبواعث الشعورية التي تحرك الشاعر وتدفعه إلى قول الشعر.

أما القاضي الجرجاني في كتابه(الوساطة). فقد ذهب إلى أبعد من هذا في تحليله الملكة الشعرية أو النفسية و أرجعها إلى عوامل مختلفة من طبع و رؤية و ذكاء ، وأن اختلاف الشعر يرجع إلى اختلاف طبائع الشعراء أنفسهم ، فهناك من يرقُ شعر أحدهم ويصلب شعر الآخر ، ويسهل لفظ أحدهم ، ويتوعر منطق غيره ، وذلك حسب اختلاف الطبائع. ولسلنا في هذا أن نتصدى لهذه الملامح لأنها تحتاج إلى بحث قائم بذاته. وإذا كان في النقد العربي القديم بذور نفسية بسيطة ، فإنها في النقد العربي الحديث ظهرت مكتملة ناضجة في النصف الأول من القرن العشرين و هذا خلاف الاتجاهات الأخرى التي مرت بمراحل تطور". بيد أن الانطلاقة الحقيقية للنقد النفسي كانت في العصر الحديث على يد جماعة الديوان. وخاصة عبد الرحمن شكري(1866-1958) الذي يُعد من الرعيل الأول الذي استفاد من معطيات علم النفس في دراسته الشعر. ويتبعه عبد القادر المازني (1890-1949) بمقال سنة 1914م درس فيه شخصية "ابن الرومي" دراسة نفسية ثم عباس محمود العقاد (1889-1964) في دراسة مماثلة للشاعر نفسه ، ولأبي نواس ، وغيرهما . "كما تناول محمد النويهي بالدراسة النفسية للشاعرين أيضا ولم تخل دراسات طه حسين للمتنبي ، وأبو العلاء المعري من هذا النزوع النفسي ." وهكذا توالت في زمن هؤلاء الرواد وبعدهم ،الدراسات النفسية لشعراء تجلت فيهم و في شعرهم النزعة الفردية. ونستطيع على كل حال أن نتعقب ملامح نظرية التحليل النفسي في النقد العربي الحديث من خلال ثلاثة محاور:

1-دراسة شخصية الشاعر أو الفنان(سيرته الذاتية) : وقد اهتم بهذا المحور نقاد كثر ؛ منهم العقاد ، ومحمد النويهي ،ومحمد كامل حسين، وحامد عبد القادر. ولم يقتصر هؤلاء الأدباء و النقاد على دراسة شخصيات غيرهم ، و إنما كتبوا عن أنفسهم ما يشبه السيرة الذاتية ، كتب المازني (إبراهيم الكاتب)(وإبراهيم الثاني) و كتب العقاد و(أنا) وكتب طه حسين (الأيام) وكتب أحمد أمين (قصة حياتي)."ويعد العقاد من الذين تبنوا بالدراسة النفسية لشخصية الشاعر أو الأديب ، إذ تناول ما يقارب على ثلاثين شخصية من القديم و الحديث و في مجالات معرفية مختلفة: شعرية و أدبية ، فكرية ، وسياسية واجتماعية. بالإضافة إلى سيرته الذاتية." وتقوم الدراسة البيوغرافية للشعراء و العباقرة ، عند العقاد على المقومات الآتية:

-رسم الصورة النفسية و الجسدية.

- استنباط مفتاح الشخصية.

فالعقاد جسد الصورة الجسدية و" اعتمد في تجسيدها على الوصف الخارجي للبنية الجسدية ، وكل ما يتصل بهذه البنية من علامات مميزة . وهذه العناية يوصف الملامح النفسية الجسدية يجسد ما يسمى في علم النفس بالتشخيص النفسي (psychodingnos) القائم على دراسة الشخصية بواسطة الظواهر الخارجية."

2- دراسة عملية الإبداع: ومثال على ذلك تجربة مصطفى سويف في كتابه "الأسس النفسية للإبداع الفني في الشعر خاصة" .وقد تكون هذه التجربة أحسن ما كُتب في هذا المجال ؛إذ "نفذ هذا الباحث تجربة ميدانية ،استخدم فيها طريقة (الاستبيان) أو (الاستخبار) للوصول إلى استقصاء نفسي شامل لكل ما يحيط بالعملية الإبداعية والمبدع معا. حيث تقوم

هذه الطريقة على استجواب بعض الشعراء بأسئلة يجيبون عنها كتابة .وقد دون الباحث نفعغلا أسئلته ،ثم قابلها بأجوبة الشعراء وبعض مسوّداتهم لمعرفة خطوات العملية الإبداعية".

3- دراسة العمل الأدبي : وهو المحور الذي شُغف به عدد غير قليل من النقاد والأساتذة الباحثين منهم :محمد خلف الله في كتابه "من الوجهة النفسية في دراسة الأدب ونقده" ،وأمين الخولي وكتابه (فن القول) ،وحامد ع القادر في كتابه "دراسات في علم النفس الأدبي" وعز الدين إسماعيل في كتابه "التفسير النفسي للأدب". إذ يعود الفضل إليهم في توجيه الدراسة النفسية نحو الأعمال الأدبية والأدباء ،وتوثيق الصلة بين علم النفس والأدب العربي".

وعليه فإن وظيفة النقد الجوهرية لا تقوم لها قائمة إلا على أساس فلسفة ذوقية نفسية شاملة ، من خلال التركيز على الاهتمام بدراسة شخصية الأديب، ومدى صلة ما كتب به ، دون النظر إلى تفهم العمل الأدبي و تحليل نصوصه. وأن الاهتمام المتزايد بالأديب يلقى عدم الرضا عند كثير من النقاد ، مثل محمد مندور الذي يرى أن" الأدب لا يمكن أن نحدده و نوجهه و نحييه إلا بعناصره الداخلية الأدبية البحتة ، وهذا ما يجب علينا جميعا أن نجاهد في سبيله ، و أنه لوهم بعيد ، أن نظن في علم النفس ، أو علم الجمال أو غيرهما من العلوم الكبيرة فائدة للأدب ، يجب علينا أن نعرف تلك الأبحاث و لكن على أن نحتفظ بتلك المعرفة لأنفسنا ولا نزج بها في الأدب ، وإلا كنا مفلسين ، نوهم الغير ببريق كاذب."

أما بالنسبة لسيد قطب في كتابه النقد الأدبي أصوله و مناهجه، فيرى أنّ ثمة علاقة وطيدة بين المنهج الفني والنفسي" وإذا استطاع "المنهج الفني" أن يفسر لنا " القيم الفنية" شعورية و تعبيرية الكامنة في العمل الفني ، بحيث نملك الحكم الفني على العمل الأدبي و بحيث نستطيع تصور و تصوير الخصائص الشعورية و التعبيرية لصاحبه ، فإن قسطا من هذا التصوير وذلك التفسير تتدخل فيه "الملاحظة النفسية" وهي أشمل من علم النفس كثيرا. فالخصائص الشعورية مسألة نفسية بالمعنى الشامل ، وملاحظتها و تطورها مسألة نفسية كذلك.